

اللسانيات والتداولية: أية علاقة؟ مقاربة تأصيلية.

Linguistics and pragmatics:

what is the relationship? An original approach

سارة مزياني
جامعة العربي بن مهيدي - أم البواقي/الجزائر

ملخص:

تعد التداولية علم تواصلية جديد، يعالج كثيرا من ظواهر اللغة ويفسرها، ويساهم في حل مشاكل التواصل ومعوقاته، ومما ساعدها على ذلك أنها مجال رحب يستمد معارفه من مشارب مختلفة منها: علم الاجتماع، علم النفس المعرفي، علم الاتصال، واللسانيات، وهو ما أكسبها طابع التوسع والثراء في معالجتها المختلفة للغة، وجعلها تتخذ مكانة مهمة بين البحوث بعدما كانت تعد سلة مهملات اللسانيات، بناء على هذا جاءت ورقتنا البحثية لتبين طبيعة علاقة هذا العلم التواصلية الجديد باللسانيات التي وقفت عاجزة أمام جملة من الأسئلة فرضت نفسها على الساحة العلمية، وحاولت التداولية الإجابة عنها متوسلة في سبيل ذلك عديدا من العلوم والمعارف.

الكلمات المفتاحية: التداولية، اللسانيات، طبيعة العلاقة، ظواهر اللغة ..

Abstract:

Pragmatics is new communicative science, addresses many phenomena of language and interprets them, it contributes to solving problems of communication and its barriers, this is because of its wide field that derives knowledge from different areas : Sociology, Cognitive Psychology, communication science and Linguistics, this helps it to gain richness and expansion of its distinct language processing and it gives it an important place among research after it was a Linguistic trash. For that this research paper aims to show the nature of the relationship between this new communicative science and Linguistics which stands incapable in front of a bunch of questions impose themselves in scientific arena , pragmatics tries to answer them through knowledge and sciences.

Key words: Pragmatics, Linguistics, relationship, the phenomena of language.

تمهيد:

تعد التداولية أحد أهم المناهج اللغوية الحديثة التي صحت مسار علم اللغة الحديث، حيث تداركت العديد من نقائصه. وتنطلق التداولية من أن الوقوف بالدراسة اللسانية عند حدود بنية اللغة لا يمكن فهمها والوقوف على أكبر قدر من حقائقها، وهو ما يعني الدعوة إلى دراسة اللغة في الاستعمال، الذي يستدعي دمج حقول معرفية متعددة في دراسة ظاهرة التواصل اللغوي وتفسيره، فكان لابد من الوقوف عند علاقة التداولية بأحد هذه الحقول المعرفية وهي اللسانيات، وقبل التطرق إلى إبراز هذه العلاقة سنقدم تعريفا موجزا حول هذا المنهج اللساني الحديث.

1/ التداولية (المصطلح والمفهوم):

يرجع مصطلح التداولية إلى الجذر اللغوي "دول" فقد ورد في معجم لسان العرب لابن منظور "تداولنا الأمر أخذناه بالدول وقالوا دواليك، أي مداولة على الأمر... ودالت الأيام بكذا وأدال الله بني فلان من عدوهم، جعل الكثرة لهم عليهم... والله يداول الأيام بين الناس مرة لهم ومرة عليهم... وتداولوا الشيء بينهم، والمأشي يداول بين قدميه يراوح بينهما"¹ وجاء في أساس البلاغة "دالت له الدولة، ودالت الأيام بكذا وأدال الله بني فلان من عدوهم: جعل الكثرة لهم عليهم، والدهر دول.... وتداولوا الشيء بينهم"²

ومن الشواهد القرآنية قوله تعالى "وتلك الأيام نداولها بين الناس" آل عمران 140 نلاحظ من خلال هذه التعريفات أن كلمة دول لا تخرج عن معنى التبدل والتحول والانتقال والتغيير والأمر كذلك بالنسبة لاستعمال اللغة فهي تتحول من المتكلم إلى السامع. أما كلمة التداولية في أصلها الأجنبي pragmatique فتعود إلى الكلمة اللاتينية pragmaticus، العائد استعمالها إلى عام 1440م، وتتكون من الجذر pragma ومعناه الفعل action صارت الكلمة مع اللاحقة تطلق على كل ما له نسبة إلى الفعل³ والمنهج التداولي تيار نشأ بامتزاج وتقاطع مجموعة من الأفكار والنظريات التي تتفق على الطابع الاستعمالي للغة وكان من نتيجة هذا التداخل واتساع مجالاتها وتنوعها أن أصبح من العسير وضع تعريف جامع مانع لها.

وينسب أول استعمال لمصطلح التداولية pragmatique للفيلسوف الأمريكي "شارل موريس Charles Morris" وذلك سنة 1938م، وتمثل التداولية، حسب رأيه إحدى نواح ثلاثة يمكن معالجة اللغة من خلالها وهي:

- 1- التركيب: la syntaxe، ويعنى بالعلاقات بين العلامات فيما بينها.
- 2- الدلالة: la sémantique، وهي تهتم بدراسة العلامات في علاقتها بالواقع، أو بعبارة أخرى، دراسة علاقة العلامات بالأشياء والموجودات التي تدل عليها.
- 3- التداولية: وهي تدرس علاقة العلامات بمستعملها، بظروف استعمالها وبآثار هذا الاستعمال على البنى اللغوية.⁴

إلا أن المرحلة الحاسمة في تطور التداولية تزامن مع أبحاث فلاسفة اللغة المنتمين إلى جامعة الأكسفورد: أوستين J- Austin وسيرل J. Searl وغرايس H-Grice في إطار تيار فلسفة اللغة العادية philosophie du langage ordinaire الذي أسسه "فيتغنشتاين

Wittgenstein وهو إحدى فروع الفلسفة التحليلية التي نشأت على يد الفيلسوف النمساوي غوتلوب فريجه Gottlob Frege، وتجمع بين هؤلاء الفلاسفة مسلمة عامة مشتركة مفادها، أن فهم الإنسان لذاته ولعالمه يرتكز في المقام الأول على اللغة، لكن تراث "فيتغنشتاين" لم يكتسب مكانته الحقيقية إلا بعدما تبناه فلاسفة مدرسة أوكسفورد ولاسيما "أوستين" في كتابه "عندما يكون القول هو الفعل" وتلميذه "سيرل" في استلهامه لبعض أفكار هذا الفيلسوف واتخاذها معايير وأساسا في دراسة "القوى المتضمنة في القول".⁵

لقد تجاوز هؤلاء البنيوية والمواريث السوسيرية في مرحلة لسانية جديدة هيأت الأجواء لبروز اللسانيات التداولية، التي اهتمت بدراسة الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال ولم تتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة، ومن ثم يمكن أن يشار للتداولية بأنها نظرية تهتم "بدراسة اللغة في الاستعمال أوفي التواصل انطلاقا من أن المعنى ليس شيئا متأصلا في الكلمات وحدها ولا يرتبط بالمتكلم وحده ولا السامع وحده فصناعة المعنى تتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد وصولا الى المعنى الكامن في كلام ما"⁶

وتعني التداولية في الاصطلاح اللساني ذلك الاهتمام المنصب على مستوى لساني خاص، يهتم بدراسة اللغة في علاقتها بالسياق التواصلية لعملية التخاطب، وبالأفراد الذين تجري بينهم تلك العملية التواصلية، وبعبارة أخرى: إن التداولية تركز اهتمامها على مجموعة الضوابط، والمبادئ التي تحكم عملية تأويل الرموز والإشارات اللغوية، في إطار التواصل البشري.⁷

لقد أحدث هذا الحقل المعرفي تحولا مهما في الدرس اللساني، حيث يعد محاولة جادة وفعالة للإجابة عن مجموعة من الأسئلة التي فرضت نفسها على الساحة العلمية من قبيل: ماذا نصنع حين نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ من يتكلم ومع من نتكلم؟ ماهي استعمالات اللغة؟ كيف يمكننا قول شيء ونقصد به غير معناه العرفي؟... وكل ذلك محاولة للبحث عن الحلول للعديد من المشاكل اللغوية التي أهملتها النظريات اللسانية، ومن ثم يدمج مشاريع وحقول معرفية متعددة في دراسة ظاهرة التواصل اللغوي وتفسيره باعتبار أن التداولية تمثل حلقة وصل هامة مع مختلف هذه الحقول المعرفية منها الفلسفة التحليلية وعلم النفس المعرفي واللسانيات التي تعد أقرب حقل معرفي الى التداولية.

2/ اللسانيات والتداولية- إشكالية التداخل-

اختلف الباحثون حول العلاقة بين التداولية واللسانيات، ويعزى هذا الاختلاف إلى التداخل بين حقولها من جهة وحقول معرفية من جهة ثانية فكما نعلم أن التداولية ارتبطت باتجاهين مختلفين الأول يهتم بالجانب الاستعمالي للغة في سياقات مختلفة فيحاول تجاوز الطرح المتوارث للبنية اللغوية من أجل الكشف عن الوظيفة العملية للغة والثاني منطلقه فلسفي.

ومما لا شك فيه أن التداولية واللسانيات تشتركان معا في الاشتغال على موضوع واحد وهو اللغة، فالتداولية هي قاعدة كل اللسانيات كما وصفها "كارناب" "فأي لسانيات هي بالضرورة تداولية مادامت تحيل على المتكلم وحتى على مفهوم القاعدة بمأن كل قاعدة يوجد لها الاستعمال"⁸ وهذا يعني أن التداولية حاضرة في كل تحليل لغوي. وتجدر الإشارة

هنا إلى أن دراسة اللغة دراسة تكاملية يتم بتظافر الاتجاهين الذين عرفتهما الدراسات اللغوية وهما :

- اتجاه الدراسات الشكلية للغة؛ التي تدرس النظام اللغوي معزولا عن سياق التواصل الاجتماعي والتي تتجز في مستويات اللغة المعروفة (تركيبية نحوي ودلالي و صرفي) وفيه شقين : الشق البنيوي : (دراسة اللغة في حد ذاتها معزولا عن السياق الذي أنتجت فيها وعلاقتها بالمرسل) والشق الثاني توليدي تحويلي (تفسير الظاهرة اللغوية في عمقها قبل الانجاز) .

- اتجاه دراسات اللغة في السياق التواصلية؛ ومن سماته رصد خصائص بنية اللغة الطبيعية وربطها بوظيفتها في التواصل والتوصل إلى أن قدرة طرفي الخطاب التواصلية تكمن في معرفة القواعد العامة التي تمكنهما من تحقيق أهداف التواصل وتأويل الخطاب ومنها قواعد اللغة في مستوياتها المعروفة ، وهذه الدراسة التكاملية تتم من خلال منهج توفيقي وهو المنهج التداولي.⁹

فالبحت التداولي يدرس اللغة بالتركيز على مجالات اشتغالها وسياقات استعمالاتها؛ أي الاهتمام بالمخاطبين وسياق استعمال اللغة، هذا إلى جانب اهتمامه بالجوانب الشكلية للأنبنة اللسانية والدلالية.

وبوقوفنا عند اهتمامات اللسانيات والتداولية نجد أنفسنا أمام عتبات المفارقة والحدود، فالنظريات اللسانية اهتمت بـ :

- دراسة اللغة كبنية أو كنظام معزول عن سياقه.
- اختصار الدراسة على البنى والأشكال اللغوية وإبعاد دراسة المعنى.
- عدم تجاوز الجملة كأعلى مستوى للدراسة اللغوية.
- إهمال الظواهر الكلامية باعتبارها أشياء عارضة وفردية، وبالتالي لا تصلح أن تكون موضوعا للبحث اللغوي.

انطلاقا من هنا جاءت التداولية كردة فعل على هذه التوجهات وما أفرزته من تصورات صورية مبالغ فيها و" كذلك الغلو في الاعتماد عند وصف الظواهر اللغوية على التقابل المشهور الذي وضعه "دي سوسير" بين اللغة والكلام حيث أبعد الكلام الذي يمثل الاستعمال الحقيقي للغة ونظامها"¹⁰ فعرفت التداولية بأنها دراسة استعمال اللغة مقابل دراسة النظام اللساني الذي تعنى به تحديدا اللسانيات وهذا التحديد يعكس ما أولته النظريات اللسانية من عناية ضعيفة لاستعمال النظام اللغوي وتركيزها على دراسة النظام اللغوي بمكوناته الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية وعليه فالاختلاف بين التركيب والدلالة من جهة والتداولية من جهة أخرى هو تقابل بين النظام (اللسان) واستعمال هذا النظام¹¹.

كما يمكن أيضا ان ننطلق من التقابل بين الجملة والقول لنحدد مجال دراسة كل اتجاه"باعتبار أن الجملة موضوع لساني فهي تتحدد أساسا ببنيتها التركيبية وبدلالاتها التي تحتسب على أساس دلالة الكلمات المكونة لها وضمن هذا الفهم فإن الجملة كيان مجرد وهي نتاج نظرية إلا أن المخاطبين عند التواصل لا ينتجون جملا بل يتبادلون أقوالا... فالقول إذن نتاج إلقاء جملة ما، فإذا كانت الجملة موضوع اللسانيات فإن القول موضوع التداولية."¹²

وقد عدت التداولية فرعاً لسانياً وامتداداً لها، لكنها ليست صورة تطابقية بكافة أدواتها الإجرائية مع اللسانيات السابقة عليها كما أنها ليست سلة لمهمات اللسانيات بل "أداة لتبسيط اللسانيات"¹³ حيث "تعتبر كل ظاهرة عجزت اللسانيات عن حلها مجالاً للبحث التداولي وهذا يقتضي أن الظواهر التي تدرسها التداولية ليست مهمة ولا متروكة بالضرورة ومن ثم فهي تقوم بإزالة الغموض عن التواصل اللغوي وشرح طرق الاستدلال ومعالجة الملفوظات وهذه القضايا ليست من اهتمامات اللسانيات الصريحة"¹⁴ وهذا يعني أن التداولية لا تقف عند البنية اللغوية ذاتها بل تتجاوزها إلى دراسة اللغة عند استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة، "فبمجرد أن ينتهي عمل اللساني في دراسة اللغة (البنية) يظهر إسهام التداولي في تملّي الأبعاد الحقيقية لتلك البنية المعلنة مغلقة وتتفصح من ثم على الأبعاد النفسية والاجتماعية والثقافية للمتكلم والمتلقي والجماعة التي يجري فيها التواصل، مع احتساب مجموع السنن الذي يحكمه وهذا ما يقنعنا بأن التداولية فعلاً استطالة للسانيات"¹⁵.

وفي إطار هذا التداخل بين هذه المجالات يشار إلى أعمال "بنفنيست" التي دشنت لمشروع اللسانيات التداولية لاشتغال هذه الأعمال على توسيع موضوع البحث اللساني والانتقال من دائرة اللغة إلى دائرة التلفظ والاشتغال على الحدث الكلامي وسياقه المقامي وأدوات إتمامه والجوانب الشخصية للفرد المتكلم والمتلقي ليتم الانتقال من لسانيات اللغة إلى لسانيات التلفظ.¹⁶

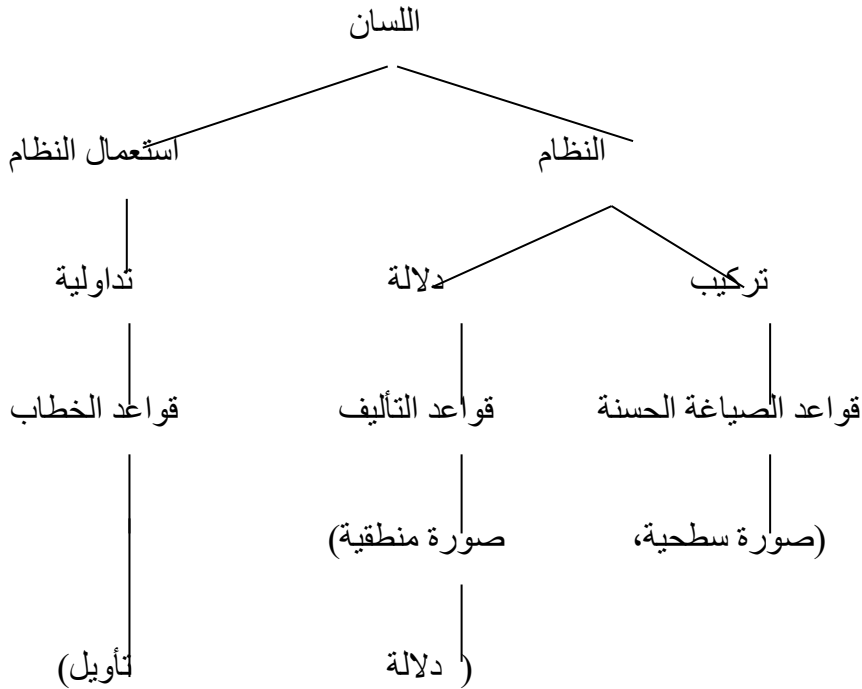
وقد أدرج الكثير من الباحثين التداولية ضمن الحقل اللساني باعتبارها "الدراسة أو التخصص الذي يندرج ضمن اللسانيات"¹⁷ وعلى رأسهم "طه عبد الرحمن" الذي قسم اللسانيات إلى ثلاث أقسام، هي:

- الداليات: وهي الدراسات التي تختص بوصف - وإن أمكن بتفسير - "الدال" الطبيعي في نطقه وصوره وعلاقته؛ وبهذا تكون الداليات شاملة للمكونات الثلاثة: الصوتيات، والصرفيات، والتركيبيات.

- الداليات: وهي الدراسات التي تختص بوصف - وإن أمكن بتفسير - العلاقات التي تجمع بين الدوال الطبيعية ومدلولاتها سواء اعتبرت تصورات في الذهن أو أعياناً في الخارج.

- التداوليات: وهي الدراسات التي تختص بوصف - وإن أمكن بتفسير - العلاقات التي تجمع بين الدوال الطبيعية ومدلولاتها وبين الدالين بها.¹⁸

"ويمكن أن يشار في إطار الحديث عن تنامي الدراسات التداولية وعدّها جزءاً من اللسانيات إلى إنشاء (الجمعية التداولية العامة) ipra في (إنترويت) عام 1987، إذ تؤكد وثائقها الرسمية أنها اقترحت إدراج التداولية في النظرية اللسانية، كما أكدت على ضرورة أن يكون اشتغال التداولية على أوسع نطاق، ليشمل استعمالات اللغة في كل جوانبها"¹⁹ ويمكننا تمثيل موقع التداولية بالنسبة إلى اللسانيات بالرسم الاتي²⁰:



هذا المخطط يعكس ما أولته النظريات اللسانية البنيوية والتوليدية من عناية ضعيف لاستعمال النظام اللغوي وتركيزها على دراسة النظام اللغوي بمكوناته (الصوتية الصرفية النحوية والدلالية) "وعليه يجب إتمام الدلالة اللسانية وهذا هو دور التداولية التي أن تقدم تأويلا تاما للجملة"²¹ نظرا لعدم كفاية الدراسة الشكلية -سواء أكان ذلك من حيث التركيب أم من حيث الدلالة المنطقية- لإظهار خصائص اللغة التي تتجلى من خلال المنجز التلفظي في سياق معين وهذا يعني التركيز على عناصر العملية التخاطبية (المرسل والمرسل إليه) ودورهما في تشكيل الخطاب وتأويله .

خاتمة:

من خلال ما تقدم يتبين لنا:

- أن اللسانيات والتداولية يشغلان على موضوع واحد وهو اللغة ؛ حيث يقف الاتجاه الأول عند البنية اللغوية بمستوياتها المعروفة (تركيبية نحوي دلالي) بينما يتجاوزها الاتجاه الثاني إلى دراسة اللغة عند الاستعمال في الطبقات المقامية المختلفة أي معرفة علاقة العلامة بمفسميها.

- كما أن التداولية ليست سلة لمهلات اللسانيات إنما هي أداة لتبسيطها على حد تعبير "جاك موشلار" و"آن روبيل" فكل ظاهرة عجزت اللسانيات عن حلها هي مجال لاهتمام التداولية ولذلك وصفت بأنها قاعدة اللسانيات.

- تبقى اللسانيات واحدة من العلوم التي لها السبق الكبير في تبلور المفاهيم التداولية ولهذا عدت جزء لا يتجزأ من اللسانيات.

هوامش:

- ¹ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مجلد 11، ط 3، 1994، ص 252-253.
- ² الزمخشري، أساس البلاغة، تح: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، الاسكندرية، د ط، ص 139.
- ³ أبو زيد، نوارى سعودي، المنهج التداولي في مقاربة الخطاب المفهوم والمبادئ والحدود، بحوث ومقالات، ص 1
- ⁴ محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة، الاسكندرية، د ط، 2002، ص 09.
- ⁵ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط 1، 2005، ص 23-24.
- ⁶ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 14.
- ⁷ ينظر: المنهج التداولي في مقاربة الخطاب المفهوم، المبادئ، والحدود، ص 122، 123.
- ⁸ فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ط 1، 2007 ص 33
- ⁹ ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 1، 2004، ص 10، 11.
- ¹⁰ طالب خولة، مبادئ في اللسانيات، دار القصة للنشر، القصة، د ط، 2000، ص 170.
- ¹¹ مرتضى جبار كاظم، اللسانيات التداولية في الخطاب القانوني، دار الأمان، الرباط، ط 1، 2015، ص 19
- ¹² جاك موشر-وآن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، تر: مجموعة من الأساتذة والباحثين، المركز الوطني للترجمة، تونس، د ط، ص 27.
- ¹³ المرجع نفسه، ص 26.
- ¹⁴ التداولية عند العلماء العرب، ص 27.
- ¹⁵ المنهج التداولي في مقاربة الخطاب، ص 124.
- ¹⁶ اللسانيات التداولية في الخطاب القانوني، ص 20، 21.
- ¹⁷ التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص 19.
- ¹⁸ طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 2، 2000، ص 28.
- ¹⁹ مرتضى جبار كاظم، المرجع السابق، ص 22.
- ²⁰ القاموس الموسوعي للتداولية، ص 30.
- ²¹ المرجع نفسه، ص 30.